المحاضرة الحادي عشر: صحيفة أحباب الأهالي

تعتبر صحيفة "**أحباب الأهالي** "واحدة من التجارب الإعلامية المتميزة في تاريخ الصحافة الجزائرية المكتوبة، إذ ظهرت كتيار إصلاحي يسعى للمقاربة بين الإدارة الاستعمارية والمجتمع المحلي في ظل ظروف سياسية بالغة التعقيد. وقد مثلت هذه الصحيفة منبراً فكرياً حاول كسر الجمود الذي فرضه الواقع الاستيطاني مستفيدة من الهوامش الليبرالية المتاحة آنذاك للتعبير عن انشغالات النخبة والأهالي على حد سواء. وانطلاقاً من هذه الأهمية التاريخية تبرز الحاجة لتسليط الضوء على خلفيات ظهورها وهو ما يدفعنا للتساؤل :**فما هي الظروف الموضوعية والبيئة القانونية التي أحاطت بنشأة صحيفة أحباب الأهالي؟ وما هي أبرز العناوين والجرائد التي ميزت النشاط الإعلامي في تلك الحقبة؟**

1. صحيفة أحباب الأهالي بين المفهوم والنشأة

تُعدّ مسألة أصل تسمية حركة (أحباب الأهاليAmis des indigènes) إحدى النقاط المحورية في دراسة تيارات النخبة الجزائرية خلال فترة الاستعمار الفرنسي، في هذا السياق يقدم المؤرخ زهير إحدادن تعريفاً دقيقاً يوضح دوافع التسمية وخلفيتها الاستعمارية إذ يقول: "**إن هذه التسمية الغربية تشير إلى جماعة من الفرنسيين الذين استاؤوا من السياسة الإستعمارية وأرادوا أن يقدموا يد المعونة إلى نخبة معينة من المسلمين الجزائريين حتى لا ييأسوا من الوجود الفرنسي في الجزائر، ومن هذه الناحية فهم يقدمون لوطنهم أجل وأحسن الخدمات كما جاء ذلك في كتبهم وجرائدهم ، ولهذا سموا ب: (أحباب الأهالي) وترجع بداية نشاطهم إلى السنوات الأولى من الإحتلال**" [1]ويبرهن هذا القول على أن التسمية لم تكن وليدة مبادرة جزائرية خالصة بقدر ما كانت تعبيراً عن توجه فرنسي يهدف إلى احتواء النخبة المحلية وضمان بقائها ضمن الفلك الفرنسي.

تبلورت ملامح صحيفة "أحباب الأهالي" ضمن سياق تاريخي اتسم بخصوصية شديدة حيث بزغ فجرها إبان ما يُعرف بـ "العصر الذهبي للصحافة الفرنسية" **(1870-1893)**، وهي المرحلة التي أرست دعائم الجمهورية الثالثة في فرنسا وكرست التحول نحو النهج الليبرالي مما ألقى بظلاله المباشرة على الممارسة الإعلامية التي شهدت انفراجاً نسبياً في الجزائر. ومع ذلك فإن هذا الانفتاح

---

[1] زهير إحدادن، الصحافة المكتوبة في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، د.ط، الجزائر، 2012م، ص 29.

لم يمنع السلطات الاستعمارية من مواصلة سياساتها القائمة على التهديد والوعيد تارةً والترغيب تارةً أخرى تجاه الصحافة الجزائرية وروادها، وفي ظل هذه الظروف برزت صحافة "أحباب الأهالي" كتيار إعلامي أبدى نوعاً من التعاطف مع السكان الأصليين، متبنياً الدفاع عن جملة من الحقوق الأساسية للمواطنين الجزائريين. وقد تأثرت هذه التجربة الإعلامية بعمق بالترسانة القانونية الصادرة آنذاك، وعلى رأسها "قانون الأهالي" لعام 1880م، بالإضافة إلى قانون وزير العدل الفرنسي ذي الأصول اليهودية "أدولف كريميو" الصادر في 24 أكتوبر 1870م والذي منح بموجبه الجنسية الفرنسية لليهود، وهو الإجراء الذي أدى إلى تعميق الفوارق الاجتماعية وزيادة حدة الصراع والمواجهة بين فئة المستوطنين والأهالي، مما جعل من هذه الصحيفة منبراً يعكس التفاعلات المعقدة لتلك الحقبة [1].

2. صحيفة المنتخب

إرتبط ظهور صحيفة أحباب الأهالي بالجمعية الفرنسية لحماية الأهالي كما أسلفنا الذكر وانطلاقا من مبادئها تم إنشاء (جريدة المنتخب) " **سنة 1882م بقسنطينة تحت اشراف " بيان إيتيان piene Etienne" وكانت تظهر كل أسبوع بلغة مزدوجة"** [2]، فقد حاولت التوفيق بين التوجهات الفرنسية واحتياجات المجتمع المحلي فاتخذت من رصد أخبار الأجانب ومتابعة أحوال العرب مادةً أساسية لمحتواها التحريري " **كما دعت إلى الحوار وعدم استخدام العنف وتطلب منهم عدم القيام بالثورات واستعمال الكتابة والكلام للتعبير عن مطالبهم"** [3]، أما من الناحية الهيكلية فقد اعتمدت الجريدة نظاماً إنتاجياً مزدوجاً إذ كانت أغلب موادها تُحرّر أصلاً باللغة الفرنسية وبأقلام محررين فرنسيين، ليتم لاحقاً نقلها إلى العربية عبر عملية تعريب دقيقة يتولاها مترجمون جزائريون مشهود لهم بالكفاءة اللغوية والمكانة الاجتماعية. وقد وثّقت أعداد الجريدة أسماء ثلة من هؤلاء المترجمين وفي مقدمتهم **أحمد بن الفكون وحمو بن يوسف**..... إن هذا الاعتماد على أسماء تنتمي إلى عائلات قسنطينية عريقة لم يكن مجرد إجراء تقني، بل عكس استراتيجية تهدف إلى كسب ثقة

---

[1] ينظر: حجام الجمعي، الصحافة والنخبة المثقفة في الجزائر خلال الإحتلال الفرنسي (المقاومة الثقافية للترسانة الحربية) ، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، ع 15، ص 145.

[2] عمار بن محمد بوزير، الصحافة الجزائرية المكتوبة أثناء الإستدمار الفرنسي، ص 11.

[3] زهير إحدادن، الصحافة المكتوبة في الجزائر، ص 106.

"الأهالي" وإضفاء صبغة محلية على الطرح الإعلامي للجريدة، مما جعلها حلقة وصل ثقافية وسياسية في ظل واقع استعماري معقد.

3. جريدة الأخبار

تُعد جريدة "**الأخبار**" التي أسسها الصحفي الفرنسي الليبرالي **فيكتور باروكاند** (Victor Barucand)عام **1902** بمدينة الجزائر، واحدة من أهم المنابر الإعلامية التي جسدت فكر "أحباب الأهالي" وأكثرها تعميراً، حيث استمر عطاؤها الصحفي حتى عام **1933**. تميزت الصحيفة بخط تحريري متحرر وجريء استهلته بموقف إنساني وقانوني لافت حين انبرت للدفاع عن المعتقلين الجزائريين إثر **انتفاضة عين تركي** (بمنطقة مليانة) عام 1901، منددة بالقمع الذي طالهم. ولم تكتفِ الجريدة بالمواقف الآنية بل خاضت معارك فكرية وقانونية شرسة توجتها بحملة وطنية ودولية واسعة ضد "**قانون الأهالي**" (L'Indigénat)الجائر، ففضحت ممارساته التي تمنح الإدارة الاستعمارية سلطات تعسفية تبيح معاملة الجزائريين بوحشية تفتقر لأدنى معايير الإنسانية. وإلى جانب دورها الحقوقي لعبت "الأخبار" دوراً تنويرياً ريادياً من خلال تسليط الضوء على مكامن القوة في **الحضارة العربية الإسلامية**، مبرزةً معالمها المشرقة وتراثها العريق في الجزائر وسائر الأقطار الإسلامية، مما ساهم في رد الاعتبار للهوية الثقافية للسكان المحليين أمام محاولات التشويه الاستعماري. وبفضل هذا التوجه، تحولت الجريدة من مجرد وسيلة إخبارية إلى **مركز إشعاع فكري ومدرسة صحفية** متكاملة، تخرج منها وتدرب في أروقتها جيل من الصحفيين المسلمين الجزائريين الذين نهلوا من تقنيات العمل الصحفي الحديث، ليحملوا لاحقاً لواء الصحافة الوطنية؛ مما جعل تجربة "الأخبار" حلقة وصل أساسية في تاريخ النضال الإعلامي بالجزائر، حيث نجح "باروكاند" من خلالها في خلق فضاء للحوار والتعاون بين النخبة المثقفة من الطرفين[1].

4. جريدة منبر الأهالي

تعد جريدة "**منبر الأهالي**(La Tribune des Indigènes) "، التي تأسست بمدينة الجزائر عام **1927**، من أبرز الشواهد الإعلامية على التزام تيار "أحباب الأهالي" بالدفاع عن القضية الجزائرية، حيث برزت بمبادرة شخصية قوية من المناضل الفرنسي (**فيكتور سبيلمان** Victor) (Spielmann) وبالرغم من أن هذه الجريدة لم تحقق الانتشار والرواج اللذين حظيت بهما جريدة

---

[1] ينظر: زهير إحدادن، الصحافة المكتوبة في الجزائر، ص 31.

"الأخبار"، نظراً لجملة من العراقيل الإدارية والمضايقات المالية التي فرضتها السلطات الاستعمارية لتقويض نشاطها، إلا أن مديرها "سبيلمان" اكتسب مكانة رفيعة وشهرة واسعة لدى النخبة الجزائرية بفضل مواقفه السياسية الصلبة ودوره كمحامٍ ومدافعٍ مستميت عن حقوق المسلمين. وتكتسب هذه التجربة أهميتها التاريخية من الارتباط الوثيق بين "سبيلمان" و**الأمير خالد**، حيث كان رفيقاً حميماً له وسنداً قوياً في مساعيه الرامية لتشكيل جبهة وطنية موحدة ضد غلاة المستوطنين؛ وبعد نفي الأمير خارج الجزائر، أخذ "سبيلمان" على عاتقه مواصلة نهجه السياسي عبر تأسيس هذه الجريدة، غير أن مشروعه اصطدم بتعنت الإدارة الاستعمارية من جهة، وبمواقف بعض فئات النخبة الجزائرية التي تنكرت لخط الأمير خالد من جهة أخرى، مما أدى في نهاية المطاف إلى محاصرة نشاطه واضطراره للتوقف عن العمل السياسي والصحف [1].

و صفوة القول أن صحافة "**أحباب الأهالي**" لم تكن مجرد وسيلة إعلامية عابرة، بل مثلت تياراً فكرياً وسياسياً "ليبرالياً" حاول إيجاد منطقة وسطى في ظل نظام استعماري إقصائي. فقد نجحت هذه الصحف، من "**المنتخب**" و"**الأخبار**" وصولاً إلى "**منبر الأهالي**"، في كسر احتكار غلاة المستوطنين للمجال العام، وتحولت إلى مدارس صحفية وحقوقية احتضنت النخبة الجزائرية ودافعت عن كرامتها ضد القوانين الجائرة كـ "الأنديجانا". ورغم ما قد يُؤخذ على هذا التيار من سعيه للحفاظ على الوجود الفرنسي عبر الإصلاح، إلا أنه قدم خدمة جليلة للقضية الوطنية من خلال فضح وحشية الاستعمار، ورد الاعتبار للحضارة العربية الإسلامية، وتكوين جيل من الصحفيين الجزائريين الذين حملوا فيما بعد مشعل الصحافة الإصلاحية والوطنية.

---

[1] ينظر: زهير إحدادن، المرجع نفسه، ص 31.